

نماذج من أدوار الهايا لكتاب الغافل الأمويين

أ. مراد لبدل

جامعة المسيلة

ملخص

إن موضوع الأدوار السياسية للكتاب في الدولة الأموية موضوع من المواضيع التاريخية السياسية المهمة، والهدف من هذه الدراسة الجادة هو معرفة مدى أثر هؤلاء الكتاب في تسيير الدولة، وكذا التقصي والاستقراء لإبراز أدوار شخصيات مطموسة لعبت دوراً في سياسة الدولة وإدارة شؤونها، كما أهدفت إلى إبراز المكانة الهاامة التي احتلتها كتاب الدولة، وأثرهم على قوتها وضعفها وإلى أي مدى قد أخلصوا للدولة وخلفائهم، لأنه كثيراً ما يغفل هذا الدور إن لم نقل يُهمل نهائياً، والإشكالية المطروحة هي: ماهي أدتهم الأدوار السياسية للكتاب في الدولة الأموية؟ وماهي مكانتهم عند خلفاء الدولة.

كان لبني أمية دور بارز في توطيد الإسلام وخدمته، والدفع به إلى أقصى مدى ما وسعهم طاقتهم والإمكانات التي توفرت لديهم، وعملوا بحرص شديد على تم وحدة المسلمين والدفاع على ما فتح وما لم يفتح، وقد عرف المؤسس الأول معاوية بن أبي سفيان ما للإدارة والإداريين من كتابٍ وغيرهم من أهمية في تحقيق أهداف ما يطلبه منه دينه، وما تطّلبه الدولة الجديدة لتوطيد أركانها، وتتجلى معرفة الأمويين بهذه الأهمية فيما استحدثه الخلفاء من أساليب وتنظيمات إدارية، وما ارتأوه من حلول للمشاكل التي واجهوها، وقد لعبت الكتابة كوسيلة والكتاب كهيئة إدارية دوراً بارزاً في حل مشاكل الدولة، ولهذا السبب غيّرت الدولة بما عنایة كبيرة، هذا بالإضافة إلى أن صناعة الكتابة صناعة شريفة، تُشَدُّ إليها الرِّحال وتحسّدُ بما الأ بصار، لما لصاحبيها من مكانة اجتماعية وثقافية عالية بين الناس وعند أهل الحكم.

ونظراً لأهمية هؤلاء الكتاب الذين هم أحد أركان الدولة كان الدافع لاختيار هذا الموضوع هو رغبتي في معرفة مدى أثرهم في تسخير الدولة، وكذلك حب التّقصي والاستقراء لإبراز شخصيات مطموسة لعبت دوراً في سياسة الدولة والإدارة والأدب والتاريخ، فالمعلوم الملاحظ أن الأحداث وتطور الدول ينسب دائماً إلى الخلفاء والملوك، وفي المقابل ننسى أو نُغفل دور رجال أفادوا، عملوا في الخفاء وتحت سلطة الحكام، وهم من لعب الدور الرئيسي في تسخير الدولة وتطورها.

كما أريد أن أبرز المكانة الهامة التي احتلها كتاب الدولة وأثرهم على قوتها وضعفها، وإلى أي مدى قد انخلعوا للدولة وخلفاها، لأنّه كثيراً ما يغفل هذا الدور إن لم نقل يهمل خائفاً، فالكاتب لم يكن دائماً «محرّر صائع فتّي محترف لرغبات الحاكم وأوامره، بل قد يصل أحياناً إلى أن يتدخل في تكييفها أو يقتطع له قسطاً من السلطة، وإذا كانت أحجهزة الدولة الإسلامية تنقسم إلى وظائف القلم... ووظائف

سراً... فَإِنْ لَفِودَ بَعْضُ الْكِتَابِ قَدْ وَعَلَ أَحْيَا إِلَى اجْمَعٍ بَيْنِ الْوَظِيفَيْتَينِ^(١).

زيادة على ما ذكرنا أصبح الكاتب مأمونا في كل ما يكتب، ولا يفعل الخليفة أكثر من أن يُوقع فقط، وأصبح الكاتب كالوزير وله رأي في أمور الدولة وله سلطة عظيمة^(٢) ولقد كثُر الكتاب في عصر بن أبي أمية بعد أن نالت مهنة الكتابة تقدير والاحترام من الدولة والناس معا، وأصبحت وظيفة الكاتب وظيفة أولى، يتمتع صاحبها بالمكانة العالية لقرباته من الحكم^(٣) ومن أبرز هؤلاء:

- نماذج من الكتاب:

عمرو بن سعيد^(٤) كاتب معاوية على ديوان الجندي، فمن الوظائف التي أسندت إليه بعد ذلك أنه ولـ مكـة والمدينة لـ معاوية وابنه يزيد^(٥)، ولعل هذه الوظيفة من أهم ما كان يـسـنـدـ إـلـىـ الـكتـابـ، فـتـمـنـحـ لـهـ الـولـاـيـةـ وـحـرـيـةـ التـصـرـفـ فـيـ الأـقـالـيمـ.

زيروي ابن قتيبة أيضاً أن عمرو بن سعيد بعث وهو ولـ المـدـيـنـةـ جـيشـاـ لـقتـالـ ابن الزبير سنة 70هـ^(٦)، وكلـ هـذـاـ يـبـيـتـ أنـ لـعـمـرـوـ بـنـ سـعـيدـ الدـوـرـ الرـئـيـسيـ فـيـ تـوـطـيـدـ

(١) علي أومنيل: السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998، ص 53، 54.

(٢) شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر، دمشق، 1994، ص 320.

(٣) عبد الحميد جيدة: صناعة الكتابة عند العرب، دار العلوم العربية، بيروت، 1998، ص 42.

(٤) الجيشهري أبو عبد الله محمد بن عبدوس: الوزراء والكتاب، تـحـ عـبدـ اللهـ اسماعـيلـ الصـاويـ، مـطـبـعةـ الشـهـيدـ الـحسـينـيـ، الـقـاهـرـةـ، 1938، ص 15.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير الأعلام، تـحـ عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1989، ج 5، ص 202. ابن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشي: البداية والنهائية، تـحـ أحمد شعبان بن أحمد، مكتبة الصفا، القاهرة، 2003، ج 8، ص 127.

(٦) ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم: الإمامة والسياسة المنسب إليه، تـحـ محمد طه الزبيدي، دار المعرفة، بيروت، دـطـ، ج 2، ص 3. ابن عساكر: المصدر السابق، ج 46، ص 40. الذهبي: المصدر السابـةـ، 5، ص 205.

كما نذكر في الوظائف السياسية أن الخلفاء كانوا يستشرون الكتاب، ويلجؤون إليهم في أحوال الظروف، فلما حُوصر بنو أمية بالمدينة قبل وقعة الحيرة⁽¹⁾، كتب بنو أمية إلى نيزيد يستغثونه، فاستشار عمرو بن سعيد في أمرهم وأمره أن يسير إليهم⁽²⁾، فقال عمرو: «كنت قد ضبطت لك البلاد، وأحكمت الأمور، فأمّا الآن فإنما هي دماء قريش ثرثاق، فلا أحب أن أتول ذلك»⁽³⁾.

وفي مجال توطيد الأمور للخلفاء نذكر أن عمرو بن سعيد دخل مع مروان إلى مصر وأخذها من عامل ابن الزبير وهيأ الأمور، فبaidu الناس مروان⁽⁴⁾، وبلغ الأمر وتطور الوظيفة بعمرو أن رُسّح للخلافة، فالمعلوم أنه لما اجتمع أعيان بي أمية بالجاهية⁽⁵⁾ لتعيين خليفة اتفقوا على البيعة لمروان بن الحكم وبعده خالد بن نيزيد ثم عمرو بن سعيد بن العاص، على أن إمرة دمشق لعمرو وإمرة حمص لخالد⁽⁶⁾.

ولكن مروان تراجع بعد ذلك وعقد البيعة لابنه عبد الملك وعبد العزيز⁽⁷⁾، ولما تولى عبد الملك بقي عمرو طامعاً في الخلافة، وفي سنة 70 هـ سار عبد الملك إلى

⁽¹⁾- كانت وقعة الحرة سنة 63 هـ حيث خرج أهل المدينة على نيزيد بن معاوية، فبعث إليهم جيشاً لقتالهم، فقتل فيها خلق كثير من الصحابة، وانتهكت حرمة المدينة واستبيحت. السيوطي جلال الدين: تاريخ الخلفاء، تج: أبو عبد الله محمد بن الجميل، دار البصيرة، الإسكندرية، 2004، ص 210، 211.

⁽²⁾- ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: المستجم، تج: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995 ج 6، ص 13 ابن كثير: المصدر السابق، ج 8، ص 186.

⁽³⁾- ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 6، ص 13.

⁽⁴⁾- التويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الإرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1991، ج 21، ص 94. ابن كثير: المصدر السابق، ج 8، ص 217، 216.

⁽⁵⁾- الجahية قرية من أعمال دمشق، ومؤتمر الجahية هو الاجتماع الذي يوبع فيه لمروان، وكان يوم الاثنين للنصف من ذي القعدة سنة 64 هـ. ابن عساكر: المصدر السابق، ج 57، ص 254.

⁽⁶⁾- التويري: المصدر السابق، ج 21، ص 87.

⁽⁷⁾- ابن الجوزي ، المصدر السابق، ج 6، ص 37. ابن كثير: المصدر السابق، ج 8، ص 263.

فُرقيسياء⁽¹⁾، وخلف عمرو بن سعيد بدمشق، فاستغل عمرو الفرصة وتحصن بها ودعا الناس إلى بيته، فلما سمع به عبد الملك كرّ راجعاً إليه وأقنه⁽²⁾، يقول الديئوري: «وامتنع عمرو بن سعيد عن البيعة ومات مروان وله ثلاثة وستون سنة ثم ملك عبد الملك سنة 65هـ، فخرج عمرو بن سعيد بن العاص عليه فصار أهل الشام غرفتين: فرقة مع عبد الملك، وفرقة مع عمرو بن سعيد، فدخلت بنو أمية وأشراف أهل الشام بينهما حتى اصطلحوا على أن يكونا مشتركين في الملك... وعلى أن اسم الخلافة لعبد الملك فإنّ مات عبد الملك فالخليفة من بعده عمرو بن سعيد وكتبا فيما بينهما كتاباً وأشهاداً عليه أشرف أهل الشام»⁽³⁾، ولكن عبد الملك غدر به بعد ذلك وقتله سنة 70هـ.

فمن خلال هذا يتبيّن أنّ عمرو بن سعيد ولـي المدينة ومكة، ووطّد السلطة للخلفاء، وكان يستشار في الأمور، بل بلغ به ارتقاء الوظيفة إلى أن رُشح للخلافة. وعلى الصعيد السياسي دائمـاً يذكر الجهشياري أنّ يزيد بن معاوية كان يستشير سرجون بن منصور، ومن ذلك لما بلغ يزيد مسیر الحسين إلى الكوفة ومبایعه

⁽¹⁾-تفع فرقـيـاءـ شـمـالـ عـرـاقـ، وـقـالـ يـاقـوـتـ بـأـنـهـ عـلـىـ نـهـرـ العـابـورـ فـيـ الإـقـلـيمـ الرـابـعـ، وـلـمـ فـعـ عـيـاضـ بنـ مـسـلـمـ الـجـزـيرـةـ سـنـةـ 19هـ. وـجـهـ حـيـبـ بـنـ مـسـلـمـ الـفـهـرـيـ إـلـيـهـ فـتـحـهـ يـاقـوـتـ الـحـموـيـ أـبـوـ عـبـدـ اللهـ بـنـ عـبـدـ اللهـ الرـوـميـ (تـ 626هـ): معـجمـ الـبـلـدـانـ، تـحـ: فـرـيدـ عـبـدـ الـعـزـيزـ الـجـنـديـ، دـارـ الـكـتبـ الـعـلـمـيـةـ، بـيـرـوـتـ، 1990ـ، جـ 4ـ، صـ 373ـ.

⁽²⁾-الـيـعقوـيـ أـحـمـدـ بـنـ أـبـيـ يـعقوـبـ بـنـ جـعـفـرـ بـنـ وـهـبـ بـنـ وـاضـحـ (تـ 284هـ)، تـارـيخـ الـيـعقوـيـ، دـارـ صـادـرـ، بـيـرـوـتـ، دـطـ، جـ 2ـ، صـ 270ـ. الـمـسـعـودـيـ أـبـوـ الـحـسـنـ عـلـيـ بـنـ الـحـسـنـ بـنـ عـلـيـ (تـ 345هـ): مـرـوـجـ الـذـهـبـ وـمـعـادـنـ الـجـوـهـرـ، تـحـ: مـحـمـدـ مـحـيـ الدـينـ عـبـدـ الـحـمـيدـ، مـؤـسـسـةـ السـعادـةـ، مـصـرـ، 1958ـ، جـ 3ـ، صـ 109ـ-111ـ. أـبـنـ الـجـوزـيـ، المـصـدـرـ السـابـقـ، جـ 6ـ، صـ 89ـ-91ـ. أـبـنـ خـلـدونـ عـبـدـ الـرـحـمـانـ بـنـ مـحـمـدـ الـحـضـرـمـيـ: الـعـبـرـ وـدـيـوـانـ الـمـبـدـإـ وـالـعـبـرـ، مـؤـسـسـةـ جـمـالـ لـلـطـبـاعـةـ، بـيـرـوـتـ، جـ 3ـ، صـ 31ـ، 32ـ.

⁽³⁾-الـدـيـئـوريـ أـبـوـ حـيـفـةـ أـحـمـدـ بـنـ دـاـوـدـ: الـأـخـبـارـ الـطـوـالـ، تـحـ: عـمـرـ فـارـوقـ الـطـبـاعـ، دـارـ الـأـرـقـمـ بـنـ أـبـيـ الـأـرـقـمـ، بـيـرـوـتـ، دـطـ، صـ 262ـ.

أهلها له، استشار سرجون فيمن يوجهه إليها، فأشار عليه بعبيد الله بن زياد - وكان يزيد كارها له - فقال: لا خير فيه، فسم غيرا، عندها قال سرجون: أرأيت لو كان معاوية لعبيد الله بولاية الكوفة وعليه حاته، وقال: هذا عندي، ولم يمتنعني من إخبارك به أول الأمر إلا علمي بغضك لعبيد الله، فقال له: فأئذن إليه، وكان عبيد الله يتولى البصرة فضم إليه الكوفة ووجهه إلى الحسين⁽¹⁾.

فالكتاب إذا كانوا يتولون الإشارة على الخلفاء، ويتدخلون في تولية الولاية وعزفهم، كما يتولون الاحتفاظ بكتب التولية ويشرفون على تنفيذ ما فيها فهم بذلك مشاركون في السياسة مشاركة تعليمية، إذ لم يخلوا بتحقيقها مشاركون في الخلفاء، ومرروا بضاعتهم بطرق خاصة⁽²⁾.

فهذه الرواية ثبت أن الخلفاء كانوا يلحوظون إلى الكتاب في أحوال الظروف، ويستشيرونهم ويأخذون برأهم في الأمور السياسية، فالكاتب بذلك مشارك في صياغة القرار، ومن هنا نفهم حق الفهم قول عبد الحميد في رسالته إلى الكتاب: «...بكم ينتظم الملك، وتستقيم للملوك أمرورهم، وبتدييركم وسياستكم يصلح الله سلطانكم، ويجتمع فيهم وتعمر بلادهم، يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه، والوالى في القدر الستى والذى من ولايته، لا يستغني عنكم منهم أحد ولا يوجد كافٍ إلا منكم...»⁽³⁾.

⁽¹⁾-المصدر السابق، ص 19. مسکویہ أبو علي احمد بن محمد بن یعقوب : تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ترجمة سید کسری حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج 2، ص 25.

⁽²⁾-علي أو مليل: المرجع السابق، ص 58.

⁽³⁾-الجهشیاري: المصدر السابق، ص 47. القلقشندي احمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنسان، ترجمة محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ج 1، ص 118. احمد زكي صفوت: جمهورة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، ج 2، ص 456.

ونذكر في هذا الباب أن أبا الزعيم العزة كاتب عبد المذكولى الرسائل⁽¹⁾ كان واسطة بين الخليفة والزعيمة، فبلغ أوامره إلى الناس وحوائجه⁽²⁾ وهو من تولى قتل عمرو بن سعيد مع عبد الملك، فساهم بذلك في توطيد السلطة والبلاد⁽³⁾.
أما عن روح بن زباع كاتب عبد الملك على الرسائل⁽⁴⁾ فالمعلوم أنه هو من فصل الأمر في الجايتية بعد اختلاف بين أميّة حول من يولونه الخلافة، فاقتصر عليهم مبادعة مروان بن الحكم⁽⁵⁾، وما نذكره من مهمّة روح أن عبد الملك لما قلد أخيه بشرى العراق ضمّ إليه روحًا ليكون مرافقا له في ولايته ومرشدًا، ولكن بشرى تخايل عليه وأعاده إلى دمشق بعد ذلك⁽⁶⁾.

وكان عبد الملك يستشير روحًا في أموره، فكان عنده كالوزير⁽⁷⁾، يقول الذهبي: «روح بن زباع سيد جذام، وأمير فلسطين، كان معظمًا عند عبد الملك لا يكاد يفارقه وهو عنده متنزلاً الوزير»⁽⁸⁾، ويروي البلاذري أنّ الحاج سجن أحد الأشخاص، فأتى صاحبه إلى روح، وشكى له الحاج، فكلّم روح عبد الملك في

⁽¹⁾- خليفة بن خياط: المصدر السابق، ص 189، الجهشياري: المصدر السابق، ص 21.

⁽²⁾- خليفة بن خياط: المصدر السابق، ص 190. ابن عساكر: المصدر السابق، ج 20، ص 88. الذهبي: المصدر السابق، ج 7، ص 94.

⁽³⁾- البلاذري: أحمد بن يحيى جابر، أنساب الأشرف، تج: سهيل زكار، رياض ذركلي، دار الفكر، بيروت، 1996، ج 6، ص 59. ابن الجوزي: المصدر السابق، ج 6، ص 90.

⁽⁴⁾- الجهشياري: المصدر السابق، ص 21.

⁽⁵⁾- ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت ج 5، ص 41. التوربي: المصدر السابق، ج 21، ص 87.

⁽⁶⁾- الجهشياري: المصدر السابق، ص 21، 22. المسعودي: المصدر السابق، ج 3، ص 117، 118.

⁽⁷⁾- ابن عساكر: المصدر السابق، ج 18، ص 240. الذهبي: المصدر السابق، ج 6، ص 61.

⁽⁸⁾- العبر في خير من غير، تج: أبو هاجر محمد السعيد بن بسونى 1985، ج 1، ص 72. ابن العماد الحنبلى أبو الفلاح عبد الحى: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تج: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ج 1، ص 95.

شأنه، فبعث عبد الملك إلى أخراج بإصلاح سراح المُتّهمين^(١)، ونُيَسْ هذا فحسب بل تعدّت مهمّة روح إلى أن تدخل في أمر الخلافة، وأشار على عبد الملك أن يُفي لعمره بن سعيد ويوليه الخلافة بعده، فرفض عبد الملك ذلك^(٢).

وهذا بعد منصب كاتب الرسائل من المناصب التي يطلع صاحبها على خفايا وأسرار الدولة، ولاختلاطه بالخليفة كان له أن يتدخل في أمور الدولة^(٣)، هنا ويدرك البلاذري أنَّ والي المدينة لما خرج إلى قتال ابن الرَّبِيع خلف على المدينة روح بن زباع^(٤)، وهذه تدخل في عدد المهام والوظائف التي كلف بها الكتاب، أيضاً، كما ذكر أنَّ روحًا كان أحد المقاتلين مع عبد الملك حين حاصر المدينة، وكان روح دخل أحد الأبراج واستقصى عن الجنود الخارجين بالمدينة ورجع بالمعلومات إلى عبد الملك^(٥).

روى روح بأنه دخل يوماً على عبد الملك فوجده مهوماً، فسأله عن سبب ذلك فقال: فكرت فيمن أولئك أمر العرب فأرشدَه روح قائلًا: أين أنت من الوليـد زيجانة العرب وسيـدها، فعهدـ إليه عبدـ الملك^(٦)، ولعلـ كلـ هذهـ المواقـفـ والتـدخلـاتـ والمـهامـ التيـ أوـكـلـتـ لـروحـ بنـ زـبـاعـ تـرـىـنـاـ قـنـاعـةـ وـاسـتـدـلاـلـاـ عـلـىـ رـفـعـةـ الكـتابـ،ـ وـتـدـخـلـهـمـ فـيـ تـلـوـرـةـ السـيـاسـةـ وـسـيرـهـ لـقـدـ تـرـكـ رـوحـ بنـ زـبـاعـ بـصـمـاتـ وـاضـحةـ عـلـىـ حـوـادـثـ عـصـرـهـ وـظـلـ مـخـلـصـاءـ لـخـلـفـاءـ بـنـيـ أـمـيـةـ،ـ وـمـجـتـبـاـ لـكـلـ ماـ مـنـ شـأنـهـ أـنـ يـعـكـرـ صـفـوـ هـذـهـ الـعـلـاقـةـ،ـ وـبـقـيـ عـلـىـ وـلـائـهـ لـهـمـ حـتـىـ وـفـاتـهـ^(٧).

^(١)-المصدر السابق، ج 7، ص 294.

^(٢)-أبو حنيفة الذهبي: المصدر السابق، ص 262.

^(٣)-محمد طيف الله بطاطية: دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، دار الفرقان، عمان، 1999، ص 190.

^(٤)-المصدر السابق، ج 5، ص 357.

^(٥)-المصدر نفسه، ج 7، ص 47.

^(٦)-الذهبي: تاريخ الإسلام، ج 6، ص 497. السيوطي: المصدر السابق، ص 225.

^(٧)-أزهار هادي فاضل: روح بن زباع وأثره في السياسة الأموية، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، مع 15. عدد 2. 2008. ص 96.

ويذكر ابن عساكر أن سليمان بن سعد الحشبيه من اقترح عنى عبد الملك تولية الخلافة لأحد أبنائه، فقد كان مروان عهد إلى عبد الملك، ثم أخيه عبد العزيز بعده، ولكن عبد العزيز توفي قبل توليه، فدخل سليمان بن سعد على عبد الملك، وأشار عليه بتولية الوليد، والإرسال إلى أمراء الأجناد يستشيرهم⁽¹⁾.

وتشير الروايات أن عبد الملك استشار كاتبه على الرسائل ربيعة الجرشيني تقليد ابنته الوليد العهد، فطلب منه ربيعة أن يمهله سنة، فامهله عبد الملك، فلما انقضت السنة عاوده وقال له: إني عزمت أن أولئك شيئاً من التواحي، فإذا مضت له سنة قلدته التواحي؛ فقال ربيعة: «يا أمير المؤمنين إنك بعثت الوليد يقسم الأموال بين الناس ما رضوا عنه فكيف تبعثه حابيا؟ إن احتاط ذم، وإن رفق عجز، وأنت تزيد أن تجبيه، فولئه المعاون والصواب، فيكون ذلك شرفاً وذكراً»⁽²⁾، وهذه إشارات وتوجيهات من الكاتب إلى الخليفة، حتى يحافظ على سير الدولة واستقرار أمورها.

وقد نال قبيصة بن دؤيب الحظّ الوافر من التدخلات السياسية، فقد كان خاصَّ بعد الملك، وبلغ من لطافةِ محلِّه منه أنه كان يقرأ الكتب الواردة إلى عبد الملك قبله، ثم يدخل بما إليه مقصودة الختم، فيقرأها عليه ويُخبره بما فيها⁽³⁾، وقد كان كالحاجب عنده، وقد ذكرنا أنه هو من أدخل الزهرى على عبد الملك فوصله وفرض له⁽⁴⁾؛ ونظراً لأهمية ما يتولاه قبيصة قال عبد الملك لحاجبه: «لا يُمحِّب عنِّي قبيصة أَيْ ساعةٍ من ليل أو نهار، إذا كنت خالياً أو عندي رجل واحد، وإن كنت

⁽¹⁾-المصدر السابق، ج 22، ص 318.

⁽²⁾-الجهشياري :المصدر السابق، ص 22. مسكوني: المصدر السابق، ج 2، ص 257.

⁽³⁾-مسكوني: المصدر السابق، ج 2، ص 256. ابن عساكر: المصدر نفسه، ج 49، ص 253. الصفدي صلاح الدين خليل بن أبيك : الواقي والوفيات، تعلق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000، ج 24، ص 140. ابن كثير: المصدر السابق، ج 9، ص 62.

⁽⁴⁾-ابن قبيصة ابن قبيصة أبو محمد عبد الله بن مسلم : المعارف، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص 254.

عند النساء أدخل المجلس، وأعلمته بمكانه فدخل»⁽¹⁾.

ومن مظاهر تدخلات قبيصة في الجانب السياسي ما رواه ابن سعد وغيره من دفاعه عن سعيد بن المسيب، فقد دخل قبيصة على عبد الملك بكتاب هشام بن إسماعيل⁽²⁾ والي المدينة يذكر أنه ضرب سعيداً وطاف به، وأشار عليه أن سعيداً هن لا يخشى فتنه ولا غوايشه على الإسلام وأهله، وقال أكتب له يا أمير المؤمنين في ذلك، فقال عبد الملك، أكتب أنت إليه عنك، تخبره برأيي فيه، وما حالفني من ضرب هشام إيماء، فكتب قبيصة إلى سعيد بذلك، فقال سعيد حين قرأ الكتاب: الله بيني وبين من ظلمني⁽³⁾.

ومن مظاهر مشاركات قبيصة السياسة أيضاً، رأيه في محمد بن الحنفية، الذي امتنع عن مبايعة عبد الملك، فقد استشار عبد الملك قبيصة وروج بن زباد في أمره، فأشاراً عليه بأخذ البيعة منه أو صرفه إلى الحجاز، أين سيعرض لمضايقه ابن الزبير، فاختار الحجاز⁽⁴⁾.

⁽¹⁾- تاريخ الطبرى، تج: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1960، ج 6، ص 412. ابن الجوزى: المصدر السابق، ج 6، ص 261. ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الشيبانى : الكامل فى التاريخ، طبع دار الكتاب العربى، بيروت، 1985، ج 4، ص 101. التورى: المصدر السابق، ج 21، ص 275.

⁽²⁾- هو هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومى، خال مروان بن الحكم والى المدينة، كانت ابنته زوجة عبد الملك بن مروان، فلواه المدينة سنة 82. وحج بالناس سنة 83، 84، 214، 215 وصرف سنة 87 في خلافة الوليد وتوفي بعدها. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج 6، ص 214، 215، 216، 217، 218، 219، 220، 221، 222، 223، 224، 225، 226، 227، 228، 229، 230، 231، 232، 233، 234، 235، 236، 237، 238، 239، 240، 241، 242، 243، 244، 245، 246، 247، 248، 249، 250، 251، 252، 253، 254، 255، 256، 257، 258، 259، 260، 261، 262، 263، 264، 265، 266، 267، 268، 269، 270، 271، 272، 273، 274، 275، 276، 277، 278، 279، 280، 281، 282، 283، 284، 285، 286، 287، 288، 289، 290، 291، 292، 293، 294، 295، 296، 297، 298، 299، 300، 301، 302، 303، 304، 305، 306، 307، 308، 309، 310، 311، 312، 313، 314، 315، 316، 317، 318، 319، 320، 321، 322، 323، 324، 325، 326، 327، 328، 329، 330، 331، 332، 333، 334، 335، 336، 337، 338، 339، 340، 341، 342، 343، 344، 345، 346، 347، 348، 349، 350، 351، 352، 353، 354، 355، 356، 357، 358، 359، 360، 361، 362، 363، 364، 365، 366، 367، 368، 369، 370، 371، 372، 373، 374، 375، 376، 377، 378، 379، 380، 381، 382، 383، 384، 385، 386، 387، 388، 389، 390، 391، 392، 393، 394، 395، 396، 397، 398، 399، 400، 401، 402، 403، 404، 405، 406، 407، 408، 409، 410، 411، 412، 413، 414، 415، 416، 417، 418، 419، 420، 421، 422، 423، 424، 425، 426، 427، 428، 429، 430، 431، 432، 433، 434، 435، 436، 437، 438، 439، 440، 441، 442، 443، 444، 445، 446، 447، 448، 449، 450، 451، 452، 453، 454، 455، 456، 457، 458، 459، 460، 461، 462، 463، 464، 465، 466، 467، 468، 469، 470، 471، 472، 473، 474، 475، 476، 477، 478، 479، 480، 481، 482، 483، 484، 485، 486، 487، 488، 489، 490، 491، 492، 493، 494، 495، 496، 497، 498، 499، 500، 501، 502، 503، 504، 505، 506، 507، 508، 509، 510، 511، 512، 513، 514، 515، 516، 517، 518، 519، 520، 521، 522، 523، 524، 525، 526، 527، 528، 529، 530، 531، 532، 533، 534، 535، 536، 537، 538، 539، 540، 541، 542، 543، 544، 545، 546، 547، 548، 549، 550، 551، 552، 553، 554، 555، 556، 557، 558، 559، 560، 561، 562، 563، 564، 565، 566، 567، 568، 569، 570، 571، 572، 573، 574، 575، 576، 577، 578، 579، 580، 581، 582، 583، 584، 585، 586، 587، 588، 589، 590، 591، 592، 593، 594، 595، 596، 597، 598، 599، 600، 601، 602، 603، 604، 605، 606، 607، 608، 609، 610، 611، 612، 613، 614، 615، 616، 617، 618، 619، 620، 621، 622، 623، 624، 625، 626، 627، 628، 629، 630، 631، 632، 633، 634، 635، 636، 637، 638، 639، 640، 641، 642، 643، 644، 645، 646، 647، 648، 649، 650، 651، 652، 653، 654، 655، 656، 657، 658، 659، 660، 661، 662، 663، 664، 665، 666، 667، 668، 669، 670، 671، 672، 673، 674، 675، 676، 677، 678، 679، 680، 681، 682، 683، 684، 685، 686، 687، 688، 689، 690، 691، 692، 693، 694، 695، 696، 697، 698، 699، 700، 701، 702، 703، 704، 705، 706، 707، 708، 709، 710، 711، 712، 713، 714، 715، 716، 717، 718، 719، 720، 721، 722، 723، 724، 725، 726، 727، 728، 729، 730، 731، 732، 733، 734، 735، 736، 737، 738، 739، 740، 741، 742، 743، 744، 745، 746، 747، 748، 749، 750، 751، 752، 753، 754، 755، 756، 757، 758، 759، 760، 761، 762، 763، 764، 765، 766، 767، 768، 769، 770، 771، 772، 773، 774، 775، 776، 777، 778، 779، 779، 780، 781، 782، 783، 784، 785، 786، 787، 788، 789، 789، 790، 791، 792، 793، 794، 795، 796، 797، 798، 799، 799، 800، 801، 802، 803، 804، 805، 806، 807، 808، 809، 809، 810، 811، 812، 813، 814، 815، 816، 817، 818، 819، 819، 820، 821، 822، 823، 824، 825، 826، 827، 828، 829، 829، 830، 831، 832، 833، 834، 835، 836، 837، 838، 839، 839، 840، 841، 842، 843، 844، 845، 846، 847، 848، 849، 849، 850، 851، 852، 853، 854، 855، 856، 857، 858، 859، 859، 860، 861، 862، 863، 864، 865، 866، 867، 868، 869، 869، 870، 871، 872، 873، 874، 875، 876، 877، 878، 879، 879، 880، 881، 882، 883، 884، 885، 886، 887، 888، 889، 889، 890، 891، 892، 893، 894، 895، 896، 897، 898، 899، 899، 900، 901، 902، 903، 904، 905، 906، 907، 908، 909، 909، 910، 911، 912، 913، 914، 915، 916، 917، 918، 919، 919، 920، 921، 922، 923، 924، 925، 926، 927، 928، 929، 929، 930، 931، 932، 933، 934، 935، 936، 937، 938، 939، 939، 940، 941، 942، 943، 944، 945، 946، 947، 948، 949، 949، 950، 951، 952، 953، 954، 955، 956، 957، 958، 959، 959، 960، 961، 962، 963، 964، 965، 966، 967، 968، 969، 969، 970، 971، 972، 973، 974، 975، 976، 977، 978، 979، 979، 980، 981، 982، 983، 984، 985، 986، 987، 988، 989، 989، 990، 991، 992، 993، 994، 995، 996، 997، 998، 999، 999، 1000، 1000، 1001، 1002، 1003، 1004، 1005، 1006، 1007، 1008، 1009، 1009، 1010، 1011، 1012، 1013، 1014، 1015، 1016، 1017، 1018، 1019، 1019، 1020، 1021، 1022، 1023، 1024، 1025، 1026، 1027، 1028، 1029، 1029، 1030، 1031، 1032، 1033، 1034، 1035، 1036، 1037، 1038، 1039، 1039، 1040، 1041، 1042، 1043، 1044، 1045، 1046، 1047، 1048، 1049، 1049، 1050، 1051، 1052، 1053، 1054، 1055، 1056، 1057، 1058، 1059، 1059، 1060، 1061، 1062، 1063، 1064، 1065، 1066، 1067، 1068، 1069، 1069، 1070، 1071، 1072، 1073، 1074، 1075، 1076، 1077، 1078، 1079، 1079، 1080، 1081، 1082، 1083، 1084، 1085، 1086، 1087، 1088، 1089، 1089، 1090، 1091، 1092، 1093، 1094، 1095، 1096، 1097، 1098، 1099، 1099، 1100، 1101، 1102، 1103، 1104، 1105، 1106، 1107، 1108، 1109، 1109، 1110، 1111، 1112، 1113، 1114، 1115، 1116، 1117، 1118، 1119، 1119، 1120، 1121، 1122، 1123، 1124، 1125، 1126، 1127، 1128، 1129، 1129، 1130، 1131، 1132، 1133، 1134، 1135، 1136، 1137، 1138، 1139، 1139، 1140، 1141، 1142، 1143، 1144، 1145، 1146، 1147، 1148، 1149، 1149، 1150، 1151، 1152، 1153، 1154، 1155، 1156، 1157، 1158، 1159، 1159، 1160، 1161، 1162، 1163، 1164، 1165، 1166، 1167، 1168، 1169، 1169، 1170، 1171، 1172، 1173، 1174، 1175، 1176، 1177، 1178، 1179، 1179، 1180، 1181، 1182، 1183، 1184، 1185، 1186، 1187، 1188، 1189، 1189، 1190، 1191، 1192، 1193، 1194، 1195، 1196، 1197، 1198، 1199، 1199، 1200، 1201، 1202، 1203، 1204، 1205، 1206، 1207، 1208، 1209، 1209، 1210، 1211، 1212، 1213، 1214، 1215، 1216، 1217، 1218، 1219، 1219، 1220، 1221، 1222، 1223، 1224، 1225، 1226، 1227، 1228، 1229، 1229، 1230، 1231، 1232، 1233، 1234، 1235، 1236، 1237، 1238، 1239، 1239، 1240، 1241، 1242، 1243، 1244، 1245، 1246، 1247، 1248، 1249، 1249، 1250، 1251، 1252، 1253، 1254، 1255، 1256، 1257، 1258، 1259، 1259، 1260، 1261، 1262، 1263، 1264، 1265، 1266، 1267، 1268، 1269، 1269، 1270، 1271، 1272، 1273، 1274، 1275، 1276، 1277، 1278، 1279، 1279، 1280، 1281، 1282، 1283، 1284، 1285، 1286، 1287، 1288، 1289، 1289، 1290، 1291، 1292، 1293، 1294، 1295، 1296، 1297، 1298، 1299، 1299، 1300، 1301، 1302، 1303، 1304، 1305، 1306، 1307، 1308، 1309، 1309، 1310، 1311، 1312، 1313، 1314، 1315، 1316، 1317، 1318، 1319، 1319، 1320، 1321، 1322، 1323، 1324، 1325، 1326، 1327، 1328، 1329، 1329، 1330، 1331، 1332، 1333، 1334، 1335، 1336، 1337، 1338، 1339، 1339، 1340، 1341، 1342، 1343، 1344، 1345، 1346، 1347، 1348، 1349، 1349، 1350، 1351، 1352، 1353، 1354، 1355، 1356، 1357، 1358، 1359، 1359، 1360، 1361، 1362، 1363، 1364، 1365، 1366، 1367، 1368، 1369، 1369، 1370، 1371، 1372، 1373، 1374، 1375، 1376، 1377، 1378، 1379، 1379، 1380، 1381، 1382، 1383، 1384، 1385، 1386، 1387، 1388، 1389، 1389، 1390، 1391، 1392، 1393، 1394، 1395، 1396، 1397، 1398، 1399، 1399، 1400، 1401، 1402، 1403، 1404، 1405، 1406، 1407، 1408، 1409، 1409، 1410، 1411، 1412، 1413، 1414، 1415، 1416، 1417، 1418، 1419، 1419، 1420، 1421، 1422، 1423، 1424، 1425، 1426، 1427، 1428، 1429، 1429، 1430، 1431، 1432، 1433، 1434، 1435، 1436، 1437، 1438، 1439، 1439، 1440، 1441، 1442، 1443، 1444، 1445، 1446، 1447، 1448، 1449، 1449، 1450، 1451، 1452، 1453، 1454، 1455، 1456، 1457، 1458، 1459، 1459، 1460، 1461، 1462، 1463، 1464، 1465، 1466، 1467، 1468، 1469، 1469، 1470، 1471، 1472، 1473، 1474، 1475، 1476، 1477، 1478، 1479، 1479، 1480، 1481، 1482، 1483، 1484، 1485، 1486، 1487، 1488، 1489، 1489، 1490، 1491، 1492، 1493، 1494، 1495، 1496، 1497، 1498، 1499، 1499، 1500، 1501، 1502، 1503، 1504، 1505، 1506، 1507، 1508، 1509، 1509، 1510، 1511، 1512، 1513، 1514، 1515، 1516، 1517، 1518، 1519، 1519، 1520، 1521، 1522، 1523، 1524، 1525، 1526، 1527، 1528، 1529، 1529، 1530، 1531، 1532، 1533، 1534، 1535، 1536، 1537، 1538، 1539، 1539، 1540، 1541، 1542، 1543، 1544، 1545، 1546، 1547، 1548، 1549، 1549، 1550، 1551، 1552، 1553، 1554، 1555، 1556، 1557، 1558، 1559، 1559، 1560، 1561، 1562، 1563، 1564، 1565، 1566، 1567، 1568، 1569، 1569، 1570، 1571، 1572، 1573، 1574، 1575، 1576، 1577، 1578، 1579، 1579، 1580، 1581، 1582، 1583، 1584، 1585، 1586، 1587، 1588، 1589، 1589، 1590، 1591، 1592، 1593، 1594، 1595، 1596، 1597، 1598، 1599، 1599، 1600، 1601، 1602، 1603، 1604، 1605، 1606، 1607، 1608، 1609، 1609، 1610، 1611، 1612، 1613، 1614، 1615، 1616، 1617، 1618، 1619، 1619، 1620، 1621، 1622، 1623، 1624، 1625، 1626، 1627، 1628، 1629، 1629، 1630، 1631، 1632، 1633، 1634، 1635، 1636، 1637، 1638، 1639، 1639، 1640، 1641، 1642، 1643، 1644، 1645، 1646، 1647، 1648، 1649، 1649، 1650، 1651، 1652، 1653، 1654، 1655، 1656، 1657، 1658، 1659، 1659، 1660، 1661، 1662، 1663، 1664، 1665، 1666، 1667، 1668، 1669، 1669، 1670، 1671، 1672، 1673، 1674، 1675، 1676، 1677، 1678، 1679، 1679، 1680، 1681، 1682، 1683، 1684، 1685، 1686، 1687، 1688، 1689، 1689، 1690، 1691، 1692، 1693، 1694، 1695، 1696، 1697، 1698، 1699، 1699، 1700، 1701، 1702، 1703، 1704، 1705، 1706، 1707، 1708، 1709، 1709، 1710، 1711، 1712، 1713، 1714، 1715، 1716، 1717، 1718، 1719، 1719، 1720، 1721، 1722، 1723، 1724، 1725، 1726، 1727، 1728، 1729، 1729، 1730، 1731، 1732، 1733، 1734، 1735، 1736، 1737، 1738، 1739، 1739، 1740، 1741، 1742، 1743، 1744، 1745، 1746، 1747، 1748، 1749، 1749، 1750، 1751، 1752، 1753، 1754، 1755، 1756، 1757، 1758، 1759، 1759، 1760، 1761، 1762، 1763، 1764، 1765، 1766، 1767، 1768، 1769، 1769، 1770، 1771، 1772، 1773، 1774، 1775، 1776، 1777، 1778، 1779، 1779، 1780، 1781، 1782، 1783، 1784، 1785، 1786، 1787، 1788، 1789، 1789، 1790، 1791، 1792، 1793، 1794، 1795، 1796، 1797، 1798، 1799، 1799، 1800، 1801، 1802، 1803، 1804، 1805، 1806، 1807، 1808، 1809، 1809، 1810، 1811، 1812، 1813، 1814، 1815، 1816، 1817، 1818، 1819، 1819، 1820، 1821، 1822، 1823، 1824، 1825، 1826، 1827، 1828، 1829، 1829، 1830، 1831، 1832، 1833، 1834، 1835، 1836، 1837، 1838، 1839، 1839، 1840، 1841، 1842، 1843، 1844، 1845، 1846، 1847، 1848، 1849، 1849، 1850، 1851، 1852، 1853، 1854، 1855، 1856، 1857، 1858، 1859، 1859، 1860، 1861، 1862، 1863، 1864، 1865، 1866، 1867، 1868، 1869، 1869، 1870، 1871، 1872، 1873، 1874، 1875، 1876، 1877، 1878، 1879، 1879، 1880، 1881، 1882، 1883، 1884، 1885، 1886، 1887، 1888، 1889، 1889، 1890، 1891، 1892، 1893، 1894، 1895، 1896، 1897، 1898، 1899، 1899، 1900، 1901، 1902، 1903، 1904، 1905، 1906، 1907، 1908، 1909، 1909، 1910، 1911، 1912، 1913، 1914، 1915، 1916، 1917، 1918، 1919، 1919، 1920، 1921، 1922، 1923، 1924، 1925، 1926، 1927، 1928، 1929، 1929، 1930، 1931، 1932، 1933، 1934، 1935، 1936، 1937، 1938، 1939، 1939، 1940، 1941، 1942، 1943، 1944، 1945، 1946، 1947، 1948، 1949، 1949، 1950، 1951، 1952، 1953، 1954، 1955، 1956، 1957، 1958، 1959، 1959، 1960، 1961، 1962، 1963، 1964، 1965، 1966، 1967، 1968، 1969، 1969، 1970، 1971، 1972، 1973، 1974، 1975، 1976، 1977، 1978، 1979، 1979، 1980، 1981، 1982، 1983، 1984، 1985، 1986، 1987، 1988، 1989، 1989، 1990، 1991، 1992، 1993، 1994، 1995، 1996، 1997، 1998، 1999، 1999، 2000، 2001، 2002، 2003، 2004، 2005، 2006، 2007، 2008، 2009، 2009، 2010، 2011، 2012، 2013، 2014، 2015، 2016، 2017، 2018، 2019، 2019، 2020، 2021، 2022، 2023، 2024، 2025، 2026، 2027، 2028، 2029، 2029، 2030، 2031، 2032، 2033، 2034، 2035، 2036، 2037، 2038، 2039، 2039، 2040، 2041، 2042، 2043، 2044، 2045، 2046، 2047، 2048، 2049، 2049، 2050، 2051، 2052، 2053، 2054، 2055، 2056، 2057، 2058، 2059، 2059، 2060، 2061، 2062، 2063، 2064، 2065، 2066، 2067، 2068، 2069، 2069، 2070، 2071، 2072، 2073، 2074، 2075، 2076، 2077، 2078، 2079، 2079، 2080، 2081، 2082، 2083، 2084، 2085، 2086، 2087، 2088، 2089، 2089، 2090، 2091، 2092، 2093، 2094، 2095، 2096، 2097، 2098، 2099، 2099، 2100، 2101، 2102، 2103، 2104، 2105، 2106، 2107، 2108، 2109، 2109، 2110، 2111، 2112، 2113، 2114، 2115، 2116، 2117، 2118، 2119، 2119، 2120، 2121، 2122، 2123، 2124، 2125، 2126، 2127، 2128، 2129، 2129، 2130، 2131، 2132، 2133، 2134، 2135، 2136، 2137، 2138، 2139، 2139، 2140، 2141، 2142، 2143، 2144، 2145، 2146، 2147، 2148، 2149، 2149، 2150، 2151، 2152، 2153، 2154،

ومن المواقف السياسية لقبيصة أيضاً أنَّ عبد الملك لما قُتِلَ عَمْرُو بْنُ سَعِيدَ، علم بأنَّ أصحابَ عَمْرُو يحيطون بالقصر، وقد احتار لأمرهم، فدخلَ قُبَيْصَةَ صاحبَ مَشْورَتِه فسأله عبدُ الْمَلِكَ: مَا ترى في هؤلاءِ الَّذِينَ أَحْدَقُوا بِنَا وَأَحْاطُوا بِقَصْرِنَا؟ – يقصد أصحابَ عَمْرُو –، فقالَ قُبَيْصَةَ: اطْرُحْ رَأْسَه إِلَيْهِمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ اطْرُحْ عَلَيْهِمْ الدَّنَانِيرَ وَالدَّرَاهِمَ يَتَشَاغَلُونَ بِهَا، فَفَعَلَ عَبْدُ الْمَلِكَ ذَلِكَ، فَتَشَاغَلَ أَصْحَابَ عَمْرُو بِالدَّنَانِيرِ وَتَنَاسَوْا صَاحِبِهِمْ^(١).

ومن مظاهر التدخلات السياسية لقبيصة أيضاً أنه نصح عبدَ الْمَلِكَ لما أرادَ أن يخلع أخيه عبدَ العزيزَ بأن لا يفعل، لأنَّ ذلك يبعثُ له العار، وقالَ له: لعلَّ الموتِ يأنِيه فتستريح منه، ففكَّ عبدُ الْمَلِكَ عن ذلك، ولكنَّ نفسه يقيتُ شُعْرَهُ أنَّ يخلعه، فدخلَ عليه روحُ بعدِ ذلك ونصحَه أن يخلعه وأنَّ ذلك لا يجلبُ له أَيَّ شَيْءَ، فقالَ له عبدُ الْمَلِكَ، نصبحُ إنْ شاءَ اللهُ، فما أَصْبَحَا حَتَّى جَاءَهُمَا الشَّرُّ بَعْدَ مَدَدٍ من قُبَيْصَةِ بَعْثَتِ عبدَ العزيزَ، فقالَ قُبَيْصَةَ لعبدَ الْمَلِكَ: الرَّأْيُ كُلُّهُ في الأُنَاءِ والْعَجْلَةِ فِيهَا مَا فِيهَا^(٢).

ولا شكَّ أنَّ ما هم به عبدُ الْمَلِكَ من محاولة خلع أخيه إجراءٌ سياسِيٌّ خطيرٌ، يمكنُ أن يؤدي بالدولة إلى الانقسام، ولكنَّ هذا لم يحصل بسبِبِ نهيِ قُبَيْصَةَ لعبدَ الْمَلِكَ، «وَمِنْ خَلَالِ هَذَا مَوْقِفٍ هَذَا يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَشْفِطَ مِنْهُجَهُ فِي التَّعَامِلِ مَعَ عَبْدِ الْمَلِكَ كَمُشَيرٍ وَوَزِيرٍ، وَيَمْثُلُ ذَلِكَ الْمُنْهَجُ فِي صَدِقَهُ فِي النَّصِيبَةِ، وَمِرَاعَاةِ الْمُصْلَحَةِ الْعَامَةِ لِلْأُمَّةِ وَالْوَلَوْلَةِ...، وَيَمْثُلُ هَذَا الصَّدَقُ مِنْ قُبَيْصَةَ وَرِحَاةَ الصَّدَرِ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ تَسْمِيَةَ الْأَمَمِ، وَيَعْمَلُ الْخَيْرَ وَتَتَحَقَّقُ الْمُصَالَحَ»^(٣).

^(١) ابن قبيصة: الإمامة والسياسة، ج 2، ص 61، 62.

^(٢) ابن سعد: الطبقات، ج 5، ص 233، 234. البلاذري: أنساب الأشراف، ج 7، ص 254. تاريخ الطبرى، ج 6، ص 412. الجھشیاری: المصادر السابق، ص 20. الحقيقة أنَّ عبدَ العزيزَ ناشدَ أخيه ألا يُعَكِّرَ عليه بقية حياته فإنه لا يدرى إلى أيِّهما سيسبق الموت.

^(٣) عبد الله بن عبد الرحمن: الرجع السابق، ص 136.

ومن خلال ما ذكرناه عن قبصه وموافقه وتدخلاته في مختلف القضايا يتضح أثره في صياغة مواقف عبد الملك وقراراته في القضايا الخطيرة، كما يبرز أثره في إطفاء الفتنة، وحسن معالجة المواقف، وهذا يثبت حرصه على مصلحة الأمة، ودوره في الحفاظ عليها من الانقسام والتصدع.

ونشير إلى أن الآسياب التي دعت عبد الملك إلى تقريب قبصه وإيثاره ترجع إلى ثلاثة أمور:

- أولها أن عبد الملك كان قريباً لقبصه في العلم خلال إقامتها في المدينة.
- ثانيهما لعله يرجع إلى ما لمسه عبد الملك من وفاء قبصه لبني أمية إذ أن إصابة عينه يوم المعركة، توحى بمشاركته فيها مع الصنف الأموي.
- ثالثها ما يتمتع به قبصه من روح مرنة تراعي الأحوال وتقدر المواقف،
وتوازن بين المصالح⁽¹⁾.

ونختل كلامنا عن قبصه بالقول أنه بهذه المواقف «كان وزيراً لعبد الملك ومستشاراً له، وساعدته الأيمن في إدارة الدولة وتصريف شؤونها، وكان ملازمًا له في سفره وإقامته، ومن خلال هذه المكانة الكبيرة والمنزلة العالية لقبصه عند عبد الملك، تمكّن من المشاركة في إدارة شؤون الدولة مشاركة فعالة، والإسهام بآرائه السديدة في عدد من القضايا السياسية الكثيرة والمتعددة، وإن كان بعض هذه المواقف قد أشارت إليها العديد من المصادر، إلا أن هناك موقفاً أخرى طويلاً... والسبب في ذلك أن أكثر المصادر التي ترجمت للعلماء - ومنهم قبصه - اهتممت بذكر الجوانب العديدة في حيادهم العلمي، وأما ما يتعلق بالجوانب السياسية فيأتي ذكره عرضاً»⁽²⁾.

⁽¹⁾ المرجع نفسه، ص 122-120.

⁽²⁾ المرجع نفسه، ص 126.

ومن نال الحظ الوافر أيضاً على الساحة السياسية في فترة الحكم الأموي رجاء بن حبيبة الكندي كاتب رسائل عمر بن عبد العزيز⁽¹⁾ فقد كان كالوزير نسيم⁽²⁾، وكان يصحب الخلفاء ويازيرهم بالمعروف، فلما مات عمر انقطع عن صحبتهم⁽³⁾، ومن المفيد أن نعرض هنا بعض الروايات والموافق التي تبين مهام رجاء ودوره علي الصعيد السياسي، فقد روي أن رجاء كان عند عبد الملك وذكر شخص بسوء، فقال عبد الملك: والله لئن أمكنني الله منه لأفعلى ولأصعن، فلما أمكنه الله منه هم بإيقاع الفعل به، فقال له رجاء: يا أمير المؤمنين، قد صنع الله لك ما حببته، فأصنع ما يحبب الله من العفو، فعفا عنه وأحسن إليه⁽⁴⁾.

فهذا الموقف يبرر أن رجاء كان يتدخل ليغير أو يعدل موقف الخليفة، بل أن عبد الملك كان يبعث بكتبه إلى الناس مع رجاء فهو واسطة بينه وبين غيره من الرعية والولاة⁽⁵⁾، ويدرك البلاذري أن عبد الملك أتى بأسرى وأراد أن يقتلهما، فقال له رجاء: ذكرك ألاء الله عندك بالغفو، فعفا عبد الملك عنهم وفك أسرهم⁽⁶⁾، ومن هنا تبرز مكانة الكاتب وأهميته، وفي ذلك يقول هاني العمد: «وتكمّن أهمية الكاتب في الإسلام في أنه اكتسب منزلة جديدة، فأصبح كالمحكيم الح猩 صاحب مكانة عالية، لاجتماع الكثمة وال فكرة فيه، وهو صانع الرأي، يستمع إليه صاحب الدولة ويعمل بنصيحته»⁽⁷⁾.

⁽¹⁾-الجهشيلري: المصدر السابق، ص 33.

⁽²⁾-الذهبي: تاريخ الإسلام، ج 7، ص 363.

⁽³⁾-ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: صفة الصفوة، دار الجليل، بيروت، 1992، ج 2، ص 387.

⁽⁴⁾-ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ترجمة إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1972، ج 2، ص 302. ابن العماد الحنبلي: المصدر السابق، ج 1، ص 145.

⁽⁵⁾-البلاذري: المصدر السابق، ج 7، ص 48، 49.

⁽⁶⁾-الم歇lier نفسه، ص 222.

⁽⁷⁾-أدب الكتابة والتأليف عند العرب، نظرية عامة، الجامعة الأردنية، عمان، 1986، ص 20.

وَسَتَرَ رِجَاءٌ فِي تَدْخَلَاتِهِ الْمُسَيَّسَةِ فِي عَهْدِ سَلِيمَانَ، فَقَدْ قَاتَ عَنْهُ أَبُو نَعِيمٍ
«الْفَقِيهُ الْمُفَهَّمُ الْمَطْعَامُ، مُشَيرُ الْخَلْفَاءِ وَالْأُمَّرَاءِ»، رِجَاءٌ بْنُ حَيْوَةِ أَبُو الْمَقْدَامِ، كَانَ قَدْ
أَشَارَ عَلَى سَلِيمَانَ أَنْ يُولِي أَحَدَ الْقَضَايَا الْقَضَاءَ، فَجَاءَهُ أَحَدُ الرِّجَالِ وَسَأَلَهُ، فَقَالَ:
إِنِّي نَظَرْتُ إِلَيْكُمْ وَلَمْ أَنْظِرْ إِلَيْهِ»^(١).

وَلَا مِرِيضٌ سَلِيمَانٌ كَتَبَ كِتَابًا يَعْهِدُ فِيهِ إِلَى أَحَدِ أَبْنَائِهِ— وَكَانُوا صَغِيرًا لَمْ يَلْغُوا
الْحَلْمَ— فَأَشَارَ عَلَيْهِ رِجَاءٌ أَنْ يُولِي الرِّجَلَ الصَّالِحَ، وَقَالَ لَهُ: «إِنَّهُ مَا يَحْفَظُ الْخَلِيفَةُ فِي
قِرْبَهُ أَنْ يَسْتَعْلِمَ الرِّجَلَ الصَّالِحَ، فَتَرَاجَعَ سَلِيمَانٌ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ رِجَاءٌ بْنُ عَبْدِ
الْعَزِيزِ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ كِتَابًا بِذَلِكَ فَفَعَلَ، وَبَقِيَ الْكِتَابُ عِنْدَ رِجَاءٍ فَخَرَجَ
بِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ بَعْدَ وَفَاتَهُ سَلِيمَانٌ وَأَحَدُ الْبَيْعَةِ لِعُمَرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ»^(٢).

وَهَنَاكَ مَوْقِفٌ ثَالِثٌ بِمَا عَنِدَ ذَكْرِ تَدْخُلِ رِجَاءٍ فِي تَوْلِيَةِ عُمَرٍ: أَوْلَئِمْ أَنَّهُ لَمْ
كَتِبْ سَلِيمَانٌ لِعُمَرِ الْعَهْدِ وَتَرَكَهُ عَنْدَ رِجَاءٍ، جَاءَ هَشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى رِجَاءٍ
وَقَالَ: يَا رِجَاءً إِنَّ لِي بِكَ حُرْمَةً وَمَوْدَةً قَدِيمَةً، وَعِنْدِي شَكْرٌ فَأَعْلَمُنِي أَهْذَا الْأُمْرُ لِي،
فَأَبَى رِجَاءٌ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أُخْبِرُكَ حِرْفًا وَاحِدًا مَا أُسِرَّ إِلَيَّ، فَانْصَرَفَ هَشَامُ وَهُوَ
يَائِسٌ، وَضَرَبَ الْأَرْضَ بِرِجْلِيهِ وَقَالَ: «فَإِلَى مَنْ إِذَا تُحْجِيْتُ عَنِّي، أَتَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ عَبْدِ
الْمَلِكِ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَعَيْنُ بَيْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ»^(٣).

فَهَذَا الْمَوْقِفُ الْأُولُّ يَدُلُّ عَلَى كَفَاءَةِ رِجَاءٍ وَقُدرَتِهِ عَلَى تَحْمِلِ الْأَمَانَةِ وَحَفْظِهِ
السِّرِّ، أَمَّا الْمَوْقِفُ الثَّالِثُ الَّذِي نَشَيَّدُ بِهِ فَهُوَ أَنَّ رِجَاءً لَمْ يَأْلِمْ فِي الْمَسْجِدِ بَعْدَ وَفَاتَهُ
سَلِيمَانٌ أَنَّ الْخَلِيفَةَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزَ، قَالَ هَشَامٌ: لَا نَبَايِعُهُ أَبَدًا، فَقَالَ رِجَاءٌ:

(١)-أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت 430هـ): حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، 1980، ج 5، ص 170، 171.

(٢)-ابن سعد: الطبقات، ج 5، ص 335-337. البلاذري: المصدر السابق، ج 8، ص 116. ابن عساكر: المصدر السابق، ج 45، ص 159، 160. ابن الجوزي: سيرة عمر بن عبد العزيز، دار الفجر، القاهرة، 1999ص 47. الذهبي: سير أعلام البلاء، ج 5، ص 123.

(٣)-ابن سعد: الطبقات، ج 5، ص 336، 337. ابن الجوزي: سيرة عمر، ص 47.

أضرب والله عنك قم فبائع، فقام هشام يجر رجله فبائع⁽¹⁾، ومن خلال هذا الموقف أيضا يتضح أن الكتاب مكانة بلغت حتى مكانة الخلفاء أنفسهم فتحكموا في زمام الأمور.

وبعد استعراضنا لأثر رجاء في استخلاف عمر يتضح لنا أمران: أولهما احتلال رجاء مكانة كبيرة عند سليمان، فقد تفرد بالجلوس معه في حلواته، وبخاصة بأسراره، ويشير عليه في أحضر أمر في الدولة، فأمام رجاء تضاءلت مكانة أفراد البيت الأموي، والقادة العسكريين وكل الإداريين في الدولة، «وأي مكانة أكبر من أن يصيّر أمر الخلافة والدولة بين كفَّيْ رجاء، في كتاب لا يدرِي سواه ما فيه غير الخليفة، ولذا قيل ما نعلم أحداً حازت شهادته وحده إلا رجاء بن حبيبة، أي أنه صدق على عهد عمر بن عبد العزيز وحده»⁽²⁾.

والأمر الثاني الذي يظهر لنا هو ما يتمتع به رجاء من حنكة سياسية، وحكمة في تنفيذ الأمور المهمة، وينجلي ذلك من خلال بمحاجه في كتمان الأمر حتى عند أشد الناس له محبة عمر بن عبد العزيز، وهو الموقف نفسه الذي كان منه - كما أشرنا - مع هشام، وقد أسلهم هذا الموقف من رجاء في بحاج الأمر وإنفاذه⁽³⁾. ومن هنا نفهم جيدا قول علي أوميل: «وعلى الكاتب أن يدبر أمره ليس فقط كي يصوغه صياغة فنية بлагوية فحسب، بل عليه أيضا أن يكون عارفا بالمقاصد السياسية لصاحب الأمر، وأن يعرف كذلك مقام الذي يوجه إليه الخطاب، وباختصار فالكاتب ليس مجرد صائغ فني للمراسلات الرسمية، بل بمحكم اتصاله بأعلى موقع لإصدار القرار، هو كاتب سياسي قبل كل شيء»⁽⁴⁾.

⁽¹⁾- الطبرى: المصدر السابق، ج 6، ص 552.

⁽²⁾- عبد الله بن عبد الرحمن: المرجع السابق، ص 153، 154.

⁽³⁾- المرجع نفسه، ص 154، 155.

⁽⁴⁾- المرجع السابق، ص 58.

وبعد وفاة سليمان وتولى عمر الخلافة ظل رجاء يتبوأ مكانة كبيرة ومنزلة عالية، من حلال قريه من عمر وملازمته له، حيث جعله عمر من خواصه ومستشاريه، ويستنصره في أمور العامة والخاصة⁽¹⁾، وهذا منذ اللحظة الأولى التي تولى فيها عمر الخلافة، فقد جمع عمر حاشيته لما تقلد الخلافة وقال لهم: إنني ابتليت بهذا فأشيروا عليّ، فقال رجاء في صفة الرجل الموجه المرشد: «إن أردت النجاة من عذاب الله غدًا، فاحبّ للMuslimين ما تحبّ لنفسك، وأكره لهم ما تكره لنفسك ثمّ متى شئت مت»⁽²⁾.

فهذه هي إذن حل المهام التي أسندت لرجاء ولعب فيها دوراً رئيساً وحياتاً، ولكننامنذ عهد يزيد بن عبد الملك نرى رجاء يعتزل الخليفتين يزيد وهشام ابني عبد الملك، وذلك حين رأى أنّ قريه منهما لن يتحقق له ما كان يهدف إليه من الدفاع عن المصالح العامة، فاعتزاله يرمي إلى تحقيق السلامة لنفسه من الإثم بيقائه مع يزيد، ومن بعده هشام، وهو يراهما يسران بسيرة لا تحقق المصلحة العامة خاصة يزيد، ثمّ لعله رأى في اعتزاله ليزيد نوعاً من إظهار عدم الرّضى بسياسته، واستمرّ رجاء في الابتعاد عن الخلافة وال الخليفة، زمن هشام، ورغم ذلك لم يدخل عليه بالنصيحة⁽³⁾.

ونشير في الجانب السياسي أيضاً أن صالح بن حبيب الصدائـي⁽⁴⁾ كاتب الخراج كان يشير على عمر في أموره، فقد قال: «ربما كلّمت عمر بن عبد العزيز في الشيء فيغضبه، فأذكر أنّ في الكتاب مكتوب،ائق غضبه الملك الشاب، فأرفق به حتى

(1) عبد الله بن عبد الرحمن: المرجع السابق، ص 155.

(2) الطبروشي أبو بكر محمد بن محمد الوليد الفهري المالكي: سراج الملوك، تعلّم: نعمان صالح الصالح، دار العاذرة للطباعة والنشر، الرياض، 2005، ص 106. ابن عساكر: المصدر السابق، ج 45، ص 170.

(3) عبد الله بن عبد الرحمن: المرجع السابق، ص 155.

(4) ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم: مختصر تاريخ دمشق، تعلّم: سكينة الشهابي، دار الفكر، دمشق، 1988، ج 11، ص 27.

يذهب غضبه، فيقول لي بعد ذلك، لا يمنعك يا صالح ما ترى منا أن تراجعنا في الأمر إذا رأيته»⁽¹⁾.

ونشير أيضاً إلى أنَّ سالِم⁽²⁾ كاتب هشام بن عبد الملك بعث بعد وفاة هشام إلى الوليد بن يزيد بكتاب يوثقُ الخليفة⁽³⁾، وهذا الفعل من سالم يدل على تحكمه في زمام الأمور بعد وفاة الخليفة، وهو مقارب ل موقف رجاء بعد وفاة سليمان، بل أعظم من ذلك فسالم ولَّ الوليد من تلقاء نفسه دون إذن من الخليفة.

وتذكر المصادر أنَّ هشام ولَّ كاتبه عَبْدُ اللهِ بْنِ الْجِبَابَ على الخراج وجند مصر⁽⁴⁾، فضبط أمورها، وسيَّرَ الغزارة إلى أرض السودان، وعمل على تطوير دار صناعة المراكب البحريَّة، بتونس وأنشأ بها جامع الزبيونة⁽⁵⁾، ثمَّ ولَّ هشام كامل المغرب حتى الأندلس، وقام بعدَّة فتوح في السودان والمغرب، وأغزى ناحية صقلية، وأصبح يتصرف في بلاد المغرب إلى أن قُتل سنة 132⁽⁶⁾.

فكل هذا يوضح أنَّ الكتاب كانوا يتعلَّون بالإضافة إلى الكتابة العديدة من المناصب السياسيَّة، وكان لهم عميق الأثر على هذا الجانب، فلعبوا دوراً في تسيير وتوجيه سياسة الخلفاء.

ونشير إلى أنَّ هناك بعثات بذرت من بعض الكتاب، ومن ذلك ما فعله عياض بن مسلم كاتب هشام، فقد منع خزان الأموال من الإنفاق على هشام لما مرض، بل منعهم من تكفيه حين مات فكفته مولاه⁽⁷⁾.

⁽¹⁾- ابن عساكر: المصدر السابق، ج 23، ص 332. المزي: المصدر السابق، ج 13، ص 24، 25.

⁽²⁾- خليفة بن خياط: المصدر السابق 23.

⁽³⁾- ابن الأثير: المصدر السابق، ج 4، ص 257.

⁽⁴⁾- خليفة بن خياط: المصدر السابق، 235.

⁽⁵⁾- الزركلي: المرجع السابق، ج 4، ص 192.

⁽⁶⁾- ابن عساكر: المصدر السابق، ج 37، ص 415، 416.

⁽⁷⁾- المصدر نفسه، ج 47، ص 285.

وهنا لا بد من كلمة وهي أنه لا ينبغي أن تُسْخَد المُخالفة الواحدة وسيلة للشهر في زمن من الأزمات، أو بقعة من المقام، وإنما ينبغي أن يحاسب كل واحد لوحده وبمحاكم على تصرفاته.

وكما نلاحظ أنه لم يكن الكاتب دائماً « مجرد صائع فني محترف لرغبات المحاكم وأوامره، بل قد يصل أحياناً إلى أن يتدخل في تكييفها أو يقطع له قسطاً من السلطة، وإذا كانت أجهزة الدولة الإسلامية تنقسم إلى وظائف القلم... ووظائف السيف... فإن نفوذ بعض الكتاب قد وصل أحياناً إلى الجمع بين وظائف السيف والقلم»⁽¹⁾.

وبالإضافة إلى أن الكاتب مشارك في إصدار القرار، فهو مشارك أيضاً في السياسة مشاركة تعليمية، فلم يخلوا بتوجيهاتهم السياسية على المحاكم، ونفذوا آرائهم بطرق مختلفة⁽²⁾، وزيادة على ما ذكرنا أصبح الكاتب مأموناً في كل ما يكتب، ولا يفعل الخليفة أكثر من أن يُؤْقَع فقط، وأصبح الكاتب كالوزير له رأي في أمور الدولة وله سلطة عظيمة⁽³⁾.

وتذكر المصادر أن بيهس بن زميل كان على خاتم الوليد بن يزيد وكان معه حين خرج عليه ابن عمّه يزيد بن الوليد، فأشار على الوليد بأن يسير إلى حضر باعتبارها مدينة حصينة، ثم يوجه الجيوش إلى يزيد فيقتل أو يؤسر، فلم يأخذ الوليد برأيه⁽⁴⁾، وبغضّ النظر عنأخذ الوليد برأيه أو عدمه، إلا أننا نستشفّ من هذه الرواية أنّ بيهس بن زميل كان يتدخل في سياسة الوليد ولا يتواق في الإشارة عليه.

⁽¹⁾-علي أو مليل: المرجع السابق، ص 53، 54.

⁽²⁾-المراجع نفسه، ص 58.

⁽³⁾-شوفي أبو خليل: المرجع السابق، ص 320.

⁽⁴⁾-ابن عساكر: المصدر السابق، ج 63، ص 337.

ونذكر أيضاً أنَّ قَطْنَا كاتب ديوان الخاتم مولى يزيد الناقص كان معه حين دعى إلى بيته وكان ذا رأيٍ من بني أمية⁽¹⁾، كما كان حاجباً ليزيد، ولما حضرت هذا الأخير الوفاة قال قَطْنَ: أصلح الله أمير المؤمنين، أنا رسول من وراء هذا الباب ينادونك الله في دمائهم، ويسألونك بالله ما وليت أمرهم إبراهيم بن الوليد، فقطَّب يزيد ثم نظر إليه وقال بيده على جبينه: أنا أولي أمرهم إبراهيم، قالها مرات ثم أغمى عليه، فخرج قَطْنَ وقعد في البيت الذي كان فيه، وافتغل كتاباً على لسان يزيد بتوليه إبراهيم، ثم خرج بالكتاب وقرأه على الناس، فباع أهل الشام إبراهيم وأذعنوا⁽²⁾، يقول شوقي أبو خليل: «بلغت الحرفة بالكتاب أنَّ قَطْنَا مولى يزيد بن الوليد، وصاحب عمامه وحاجبه كتب على لسان الخليفة يزيد كتاباً بولاية العهد لإبراهيم بن الوليد، وقرأه على الناس؛ فباعوا لإبراهيم، خلافاً لإرادة الخليفة المختضر»⁽³⁾.

وبغضِّ النظر عن كون فعل قَطْنَ تجاوزاً وخياناً، نستنتج أنَّه كان للكتاب المكانة المهيءة والكلمة المسنوعة، إذ أنه بمجرد أن خرج بالكتاب بائع الناس، دون شك أو إعراض، وهذا الموقف كذا شاهدناه مع رجاء بن حيبة كاتب سليمان وعمر. وبذكر الجهميَّاري أنَّ عمرو بن عُتبة كاتب الرسائل⁽⁴⁾ كان ملزماً للوليد بن يزيد، فقال له يوماً: «يا أمير المؤمنين، إنك تلطفتني بالأنس وأنا أكفيت ذلك بالهيبة لك؛ وأراك تأمر بأشياء أخلفها عليك، فأمسكت مطيناً أم أقول مشفقاً؟ فقال: كل مقبول منك، والله فيما علمنا، ونحن صائرون إليه»⁽⁵⁾.

⁽¹⁾-المصلن نفسه، ج 49، ص 342. ابن منظور: المصدر السابق، ج 21، ص 85.

⁽²⁾-الجهميَّاري: المصدر السابق، ص 45. ابن عساكر: المصدر السابق، ج 7، ص 247. السيوطي: المصدر السابق، ص 258.

⁽³⁾-شوقي أبو خليل: المرجع السابق، ص 320.

⁽⁴⁾-المصدر السابق، ص 44.

⁽⁵⁾-المصلن نفسه، ص 44.

وبالنسبة لعبد الحميد الكاتب، فقد كتب قليلاً عن هشام ثمّ كتب مروان على ديوان الرسائل⁽¹⁾، وكان في البداية معلماً بالكتوفة وهي أرميّة والجزرة⁽²⁾، مما ساعدته على تكوين اتصالات وعلاقات مع المقربين من الخلفاء، فبلغ عندهم مبلغاً كبيراً من التقدير والاحترام⁽³⁾، ثمّ قام في خلافة مروان مقام الوزير⁽⁴⁾، ولعبد الحميد رسالتان شهيرتان: رسالة إلى الكتاب وأخرى في نصيحته لولي العهد كتبها على لسان مروان⁽⁵⁾ إلى ابنه ووليّ عهده عبد الله حين وجهه لقتال الصّحّاك بن قيس الفهري⁽⁶⁾ الحارجي، وكتابته للرسالة هي مهمة كلف بها من قبل مروان، فانطوت هذه الرسالة على دروس عظيمة في تربية أبناء الملوك وتلقينهم الأخلاق، وكذلك وضع خطط حربية يسير عليها ولـيـ العهد في قتال العدو، و«أثبتت عبد الحميد من خلال هذه الرسالة أنه من علماء التربية والنفس، وأنه عارف بالسياسة والإدارة وال الحرب، يستطيع أن يقود الجيوش بعلمه، كما يقود للممالك بقلمه»⁽⁶⁾.

فقد جوّد عبد الحميد الكلام عن خطة الحرب يريد أن يرفع بها مقام ولـيـ العهد، فأبان ذلك عن بعد نظره في سياسة الملك وسياسة الرعية، ثم أنشأ للمكتوب إليه طريراً واضحاً في سلوكه مع جلسائه وبطانته، «وـتا الله لقد لقـتـه هنا أدباً وحدـدـ له عادات أشبه بقواعد الحياة العامة في الممالك المتحضرة اليـوم، والعـقـلـ البـشـريـ على

⁽¹⁾- خليفة بن خياط :المصدر السابق، 267. الجهشياري، المصدر السابق، ص 44.

⁽²⁾- محمد تكود علي: أمراء البيان، دار الأمانة، بيروت، ص 32. أحمد محمد الحوفي: أدب السياسة في العصر الأموي، دار القلم، بيروت، ص 559.

⁽³⁾- عبد الأمير شمس الدين: الفكر التربوي عند ابن المقفع، الجاحظ، عبد الحميد الكاتب، دار إقرأ، بيروت، ط 1، 1985، ص 24.

⁽⁴⁾- ابن الجوزي: المنظم، ج 7، ص 318.

⁽⁵⁾- الصّحّاك بن قيس الفهري: زعيم خارجي خرج سنة 126، في مئتين من حرورة الجزرة، استولى على الثوصل والكتوفة، ولكن مروان بادر بقتلـه بضواحي قاردين سنة 129. ابن قبيـةـ: المـعـارـفـ، ص 233. الزركلي: المرجـعـ السـابـقـ، ج 3، ص 215.

⁽⁶⁾- محمد تكود علي: أمراء البيان، ص 53.

كثرة ارتقائه جيلاً فجيلاً لن ييرح في دائرة نرى فيها ما كان يستحسن من قبل ألف سنة يستحسن اليوم، وتلك القواعد التي يتمسكون بها هي القواعد التي سنها أجدادنا منذ ثلاثة عشر قرناً⁽¹⁾.

فبعد الحميد بدأ إصلاحه بتصحية الحكام والولاة، فنصحهم بالعلم والأدب، ثم التدبر في أمور العامة وأمور عماله، ونصحهم بالمشورة وتعهد الحند⁽²⁾، وبذلك وضع خططاً لإقامة نظام جديد للدولة والإدارة والسياسة، إلى جانب وضع القواعد العامة لتنمية، خاصة تربية أبناء الخلفاء⁽³⁾.

هذا ويدرك القلقشندي أن عبد الحميد كان يكتب عن مروان لبعض الولاية يوحدهم على تصريحهم ويرشدهم بأمره⁽⁴⁾، وكان حاضراً مع مروان في جميع وقائعه عند آخر أمره⁽⁵⁾، ولما رأى عبد الحميد ظهوربني العباس أشار على مروان أن ينكح زعيمهم أحد بناته وقال له: «فإن ظهر كنت قد أعلقت بينك وبينه شيئاً، وإن كفيته لم تشن بضره، فرفض مروان الأخذ بهذه التصحية»⁽⁶⁾.

ويكتب عبد الحميد إلى أبي مسلم المخريسي، وقال مروان قد كتبت كتاباً إن نجح فدائك ولا فاللهم، فلما ورد الكتاب على أبي مسلم فتحه فإذا فيه:
محى السيوفُ أسطارَ البلاغةِ وانتسحَ ليوثُ الوعيِ يغدرُ منْ كُلِّ جانبٍ
فإنْ تقدِّموا ثُعِّيلَ سِيوقًا شَحِيذَةً يَهُونُ عَلَيْهَا الْعَذْبُ مِنْ كُلِّ عَاتِبٍ⁽⁷⁾.

1- المرجع نفسه، ص 62.

2- عبد الأمير شمس الدين: المرجع السابق، ص 41.

3- المرجع نفسه، ص 24.

4- استدلل السابق، ج 10، ص 198.

5- ابن حليkan: المصدر السابق، ج 3، ص 229.

6- الجيشهاري: المصدر السابق، ص 45.

7- بي: المصدر السابق، ج 7، ص 254.

ولما أحسن مروان بالهزيمة طلب من عبد الحميد أن يصير إلى العدو، فرفض عبد الحميد ذلك وفضل الموت معه وقال:

(١) أُسرّ وفاة ثم أُظهر عدراً فمن لي بعذر توسيع الناس ظاهراً

وكانت الخامسة أن قُتل مروان وقتل بعده عبد الحميد على يد شرطة الستناح^(٢).

وكل الأعمال والمشاهد السياسية لعبد الحميد تكشف عن عبقريته وحنكته، كما تكشف عن زخم الفكر السياسي الذي كان يتمتع به العربي المسلم في هذه الفترة، فالشروط التي اشترطها عبد الحميد هي شروط العمل السياسي، فهدف إلى تطبيق الفكر السياسي الديني في كل دوائر الدولة الإسلامية^(٣).

وفي الختام يتجلّى لنا مما ذكرنا عن الكتاب أنهم كانوا بأعلى مرتبة، فهم الوزراء وهم المستشارون، و لهم أسندت أمور السياسة والرئاسة، وبهم تحصّن الخليفة وإليهم يلأ، وكل الأعمال والمقابل السياسية التي ذكرناها شاهدة على ذلك.

وهكذا كان دور الكتاب بارزاً على الساحة السياسية إبان فترة الحكم الأموي مما يوحّي أنهم كانوا محركاً فعالاً في الدولة، والمتصفح لتاريخ الدولة الأموية يتوصّم أن الخلقاء فقط هم من سير الدولة ودفع بعجلة التقدّم والاستقرار السياسي فيها. في حين تُحمل أونغفال عن رجال أفذوا ذلك لهم اليد والباع التقليل فيها.

^(١)-الجهشياري: المصدر السابق، ص 51. النحاس أبو جعفر أحمد بن محمد: عمدة الكتاب، تج: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، بيروت، 2004، ص 39، 40. ابن خلkan: المصدر السابق،

ج 3، ص 229.

^(٢)-ابن عباس: المصدر السابق، ج 34، ص 94، 95.

^(٣)-عبد الرحمن: جيد: المرجع السابق، ص 101، 102.